

المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور
(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2

Publication: Söz Basım

Year: 2002, İstanbul

الكونية الأخلاقية

بين علوم القرآن وعلوم الإنسان

دراسة في نظرية الأخلاق عند

الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

د. فريد الأنصاري(*)

مقدمة:

أَنْ تَدْخُلَ فِضَاءَ (رسائل النور)؛ يعني أنك أحد (المبصرين!) وتلك دعوى كبرى! من ذا يتجاسر على ادعائها؟ ومن ذا قد ير على أن يبوء بثقلها؟ كيف وقد ثبت أن ليس كل من (ينظر) بعينين يعد من (المبصرين)؟ ألم يقل ربنا جل وعلا: (وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)؟ (الأعراف:198). ولقد عُلِمَ أن الأستاذ بديع الزمان سعيدا النورسي ما صعد إلا أعلى مقامات الإبصار وأدقها! فأنى للدارس إذن؛ أن يواكب مشاهداته إن لم يكن مبصرا حقا؟ وإذا كان لكل حكم شرط، فقد ثبت أن ذلك هو شرط الأستاذ! أليس هو القائل: (أتكلم في مكاني، لا في مقام السامع المواجه لي - خلافاً لسائر المتكلمين، الذين يفرضون أنفسهم في مقام السامعين - فيصير أمام كتابي (الذي) وجهه إليّ، ومعكوسه ومقلوبه إلى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسر عليه؛ فإذا لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو خياله إليّ لأضيفه على عيني، في رأسي؛ كي يرى كما أرى!)⁽¹⁾

(*) رئيس شعبة الدراسات الإسلامية - جامعة المولى اسماعيل، مكناس - المغرب

تلك إذن هي القضية! وذلك هو شرطها على الإجمال!
 فكيف إذا كان التفصيل دراسة مفهوم كثيف الاكتناز الدلالي، مثل مفهوم الأخلاق؟
 هذا المصطلح الكوني، الذي يعتبر من أهم المصطلحات المفاتيح؛ لكليات رسائل النور!
 مصطلح يميلنا على كل أبعادها الكونية! فليس لنا إذن؛ أن ندعي غير المقاربة، ومحاولة
 الاقتراب. وأما الغوص والإبحار؛ فدونك رسائل النور؛ ليس ينبو عنها شيء!
 نعم، إن مفهوم "الأخلاق" كما قدمه الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله —
 من خلال تفسيره التفكري للقرآن العظيم — يعتبر مفتاحاً من أهم المفاتيح؛ لفهم نسق
 الرسائل من جهة، ولمقاربة المفهوم الكلي للدين نفسه من جهة ثانية. وما لكليات رسائل
 النور في نهاية المطاف؛ إلا مرآة صافية تعكس شعاع القرآن، وتحليله لهذه الإنسانية
 المتمردة، الضاربة اليوم في العمى.

وما العولمة الجديدة/القديمة التي تنفت ظلماتها على العالم الإسلامي؛ إلا مرحلة من
 مراحل التمرد البشري على رب الكون. وإن نظرة واحدة في المفهوم النوري للأخلاق؛
 لكفيلة ببيان هشاشة البناء البشري لمنظومة العولمة الخلقية. إذ هي أشبه ما تكون بالبناء
 العشوائي الذي يحيط المدن الكبرى في العالم. إنها محاولة لغزو النظام المتكامل لبنية
 الأخلاق لدى المسلمين، والتشويش على النسق الجميل للبعد الكوني لمفهوم الأخلاق في
 أصولها القرآنية.

إن بديع الزمان الذي تكلم في هذا الموضوع بمنهج استبصاري: "علوم المستقبل"
 ليدل على وعيه المبكر جدا، والغريب؛ بما ستؤول إليه أخلاق الغرب — والشرق المتأثر
 به — من إفلاس عجيب، لقد كان يتكلم رحمه الله وكأنه يعيش لحظتنا هذه: مرحلة ما
 بعد سقوط الاتحاد السوفياتي بالذات!

إن الفلسفة الغربية التي هي سليلة الفكر اليوناني القديم، والتي تنكرت لمسيحيته حتى
 في صورتها المحرفة! قد وصلت إلى الرأسمالية في بعدها العولمي الأخير، التي أندر بها بديع
 الزمان في رسائله، مبينا أنها أمانة الانتحار والإفلاس للفكر البشري، وبداية الانتصار
 لمنظومة القرآن. وهذا واحد من معاني تأكيده أن رسائل النور ستقرأ في كل مكان،
 وستغزو كل العالم⁽²⁾. ذلك إذن؛ وجه من وجوه عالمية القرآن، المستوعبة لكل الأشكال
 الهندسية، لأنماط الحياة في العالم.

إن الفرق بين التعبد والتمرد؛ هو الفرق بين البقاء والفناء! وهو كالفرق بين المعنى
 واللامعنى!

من هنا إذن كان لابد من دراسة هذا المفهوم ابتداءً: (الأخلاق)، كما هو معروض بشموليته الكونية في كليات رسائل النور؛ لتبين مدى الاكتناز الدلالي الذي يتصف به هذا المصطلح، في بناء تصور النورسي للإنسان كما تلقاه من القرآن العظيم، وبيان مدى الإخفاق الذي منيت به فلسفة الأخلاق في الفكر العقلاني المتمرد، المعتصم بـ(أناه)، في معناها (الاسمي)، على اصطلاح بديع الزمان النورسي كما سنوضحه بحول الله⁽³⁾. ولقد انطلق الإنسان نحو (الكونية الأخلاقية) لكن بمعنيين وبمنهجين: الأول منهج القرآن، والثاني: منهج الفلسفة، مما انتشر في علوم الإنسان الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

أما الكونية الأخلاقية في القرآن فقد جردت (أنا) الإنسان من (اسميتها)، وربتها على المعنى (الحرفي) المفتقر إلى اسم الله تجريداً وتفريداً، فامتدت أخلاقه بذلك لتسع الكون كله إمامةً للعابدين، سيرا في فلك التبعيد لله رب الكون كله. وأما الكونية الأخلاقية في الفكر الفلسفي؛ فقد رسخت اسمية (الأنا)؛ فتضخمت ثقة الإنسان بمعارفه تضخماً سرطانياً؛ حتى انتهى إلى اعتقاد استغنائه عن كل عون من الله وكل مدد. بل استغنى عن وجود الله جل وعلا! وَهَمًّا وتوهُمًا؛ فطغى! وتحول إلى وثن يعبد ذاته ويؤهلها. ولذلك قال عز جل: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ) (العلق: 6-7).

إن بديع الزمان النورسي رحمه الله قد صاغ نظريته الأخلاقية المستنبطة من القرآن، وعرضها بمنهج مقارن عجيب، مبينا آفاقها الكونية العالية، وسبقها التربوي، بالنظر إلى ما آلت إليه النظريات الأخلاقية الفلسفية قديمها وحديثها، التي لم تعتمد القرآن منطلقاً وطريقاً مختصراً للوصول. ونحن في هذه الدراسة سنحافظ في عرض مفهوم الأخلاق عنده؛ على المنهج نفسه الذي اعتمده، مع ما نضيفه من منهج الدراسة المصطلحية، المبني على الاستقراء للنصوص، والجمع بين أجزائها؛ عسى أن نصل إلى المعنى الكلي، الذي أعطاه بديع الزمان لمفهوم الأخلاق، والذي بثه خلال أجزاء رسائل النور مجملاً ومفصلاً.

وبيان ذلك هو كما يلي:

1 - الأخلاق في التعريف اللغوي:

ترجع مادة (خلق) في اللغة إلى معنى التقدير والإنشاء والطبع والتكوين. ومنه تفرعت الدلالة إلى سائر المعاني التي استعمل فيها اللفظ بعد. ولذلك دل أصالة على فعل الله في تكوين المخلوقات وإنشائها على غير مثال سابق، فكان بذلك شاملاً لكل الصفات

الجبلية في صور المخلوقات الظاهرة حسا. وهي مظاهر الخليقة. ثم دل تبعا على كل سحجة، أو طبيعة من الصفات النفسية، وهي الأخلاق. قال الراغب الأصفهاني: (الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: "خَلَقَ السموات والأرض" (الأنعام:1) أي: أبدعهما، بدلالة قوله: "بديع السموات والأرض" (البقرة:117). ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: "خلقكم من نفس واحدة" (النساء:1) (...). والخَلْقُ: يقال في معنى المخلوق. والخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد (...). لكن خص الخَلْقُ بالهيات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص [الخُلُقُ] بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: "وإنك لعلی خلق عظیم"⁽⁴⁾. وقال صاحب مختار الصحاح: (الخَلْقُ: التقدير يقال خَلَقَ الأديم: إذا قدره قبل القطع، وبابه نصر. والخَلِيقَةُ الطبيعة والجمع الخَلَاتِقُ، والخَلِيقَةُ أيضا: الخَلَاتِقُ، يقال هم خَلِيقَةُ الله، وهم خَلَقُ الله. وهو في الأصل مصدر. والخَلِيقَةُ: الفطرة، وفلان خَلِيقٌ بكذا: أي جدير به، ومضغَةٌ مُخَلَّقَةٌ: تامة (...). والخَلْقُ بسكون اللام وضمها: السحجة. وفلان يَتَخَلَّقُ بغير خلقه: أي يتكلفه)⁽⁵⁾. وفي اللسان: (الخَلِيقَةُ: الفطرة (...). والخَلْقُ والخُلُقُ: السحجة (...). وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أثقل من حُسن الخُلُق"⁽⁶⁾. الخُلُقُ بضم اللام وسكونها: وهو الدِّين والطَّبَعُ والسحجة. وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسُه، وأوصافها، ومعانيها المختصة بها؛ بمنزلة الخَلْقُ لصورته الظاهرة، وأوصافها، ومعانيها)⁽⁷⁾، وفي القاموس: (خالقهم: عاشرهم بخُلُقٍ حَسَنٍ)⁽⁸⁾.

فكانت الأخلاق في اللغة إذن؛ هي: التصرفات الإنسانية، الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. أو هي سيماء النفس وصورتها الباطنة.

2 – الأخلاق في التعريف الفلسفي:

أما مفهوم (الأخلاق) في الفكر الفلسفي، فلم يستطع أن يخرج عن نطاق تمجيد (الأنا)، على حد تعبير الأستاذ بديع الزمان النورسي، كما سيأتي بدليله. بدءا بالفكر الفلسفي اليوناني وانتهاء بالفلسفة الغربية الحديثة. لقد سكنت (الأنا) لاشعور الفلسفة، غير مسيرتها التاريخية، منذ تبلور التفكير الفلسفي مع قدماء اليونان، حيث كان الفكر الوثني أصلا هو الإطار الثقافي الذي تخلقت فيه الفلسفة الأولى. فكان لذلك دور كبير في (استصنام) الأفكار الفلسفية، وتوثينها؛ إذ كان الفيلسوف اليوناني في الحقيقة مصارعا للآلهة ومنازعا لها في (المهيمنة) على الكون، مما سجله (هوميروس) في ملاحمه الكبرى. إن

فكرة (الصراع) التي طبعت الوجدان الفلسفي اليوناني قد حكمت عليه بالذاتية (الاسمية)، والرغبة في تأليه الإنسان إلى الأبد. فكانت الفلسفة بذلك تدور على محور استصنام (الأنا) عبر تاريخها الطويل. ولم تستطع أن تتخلص منها حتى في صورتها المشائية الإسلامية وصورتها المسيحية على السواء، أي مع الفلاسفة المشائين المسلمين، وفلاسفة القرون الوسطى من المسيحيين!

فقدما انطلق أفلاطون في نظريته الأخلاقية من مفهوم (الخير الأسمى) أو (الخير بالذات)؛ مما يوحى بالمثالية المطلقة والمجردة عن الأهواء، لكنه لما أراد تطبيق ذلك على (جمهوريته المثالية) أو ما سمي في الترجمات العربية القديمة (بالمدينة الفاضلة)؛ لجأ إلى ما يمكن تسميته (بالكذب الفلسفي). حيث أنه لم يجد حرجا في لجوء الحكام والفلاسفة أحيانا إلى الكذب الصراح؛ لخداع المواطنين من الطبقة الدينية بدناءتهم، وقطع كل أمل في تغيير أوضاعهم الاجتماعية، بينما لا يجوز لهؤلاء المواطنين أن يحددوا الحكام. ويكون ذلك الكذب الضروري بالقول بأن المعدن الذي خلقت منه كل طبقة مختلف عن المعدن الذي خلقت منه الأخرى!⁽⁹⁾ وهكذا آل أمر نظرية الأخلاق الأفلاطونية إلى تمجيد (الأنا) الطبقيّة للحكام والفلاسفة وطبقة المترفين!

وانتقلت هذه (الأنا) الوثنية إلى فلاسفة الإسلام، حيث تجلت بصورة أخرى لدى فيلسوف الأخلاق المسلم ابن مسكويه؛ الذي لم يستطع التحرر من أثر الفلسفة الأخلاقية، لدى فلاسفة اليونان — رغم محاولته التوفيق بين الفلسفة والشريعة، على غرار سائر فلاسفة الإسلام — حيث كان يرى أن غاية الأخلاق هي تحقيق السعادة، وما السعادة إلا نوع من تحقيق الاكتفاء الذاتي على المستوى الوجودي، كما هو عند الملائكة وعند الله(!) وهو ما قال به الفارابي أيضا، حيث اعتبر أن غاية السعادة هي تحصيل الكمال الذاتي⁽¹⁰⁾، وإنما هذا من خصائص الحضارة اليونانية، التي كانت ترى أن استعمال العقل في التأمل يجعل الإنسان يشارك الآلهة في حياتها!

وعندما انتقلت النهضة الفلسفية إلى بلاد الغرب ازداد التوغل الأناني في التفكير الأخلاقي لدى فلاسفة أوروبا؛ انطلاقا مما ورثوه عن أفلاطون وأرسطو؛ وما آلت إليه من نرجسية متأهة على يد فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين، الذين اصطبغت فلسفتهم بنوازع (الأنا)، وطلب السعادة المطلقة، كما عرفها فلاسفة اليونان الوثنيين. لكنها هنا تلبست بلبوس مسيحي، كما هو الشأن عند توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى⁽¹¹⁾، ثم عند (عمانوئيل كانط) شيخ الفلسفة في العصر الحديث⁽¹²⁾، ولم

تزل الرغبة في تحقيق سعادة (الأنا) هي أساس التفكير الأخلاقي في الفلسفة الغربية؛ حتى تطورت الأخلاق إلى (المذهب النفعي) في صورته المادية⁽¹³⁾؛ بفعل التحولات الاجتماعية العميقة التي شهدتها أوروبا؛ استجابة لتطور الأوضاع الصناعية؛ ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي، كما أثبتته مؤرخ الفلسفة الغربية الفيلسوف الإنجليزي (برتراند رسل)، الذي قال: (لقد اشتق مذهب المنفعة من نظرية أخلاقية ترجع بوجه خاص إلى هتشنسون، الذي كان قد عرضها عام: 1725م، وترى النظرية باختصار أن الخير هو اللذة، والشر هو الألم)⁽¹⁴⁾. ولم تزل كذلك؛ حتى آلت إلى النفعية الحديثة، سواء في صورته الماركسية؛ أو في صورتها الليبرالية. وهكذا تطورت النظريات الفلسفية الأخلاقية إلى ما انطلقت منه ابتداء، من مثل فلسفة أفلاطون الذي بنى جمهوريته على توظيف الكذب لاستغلال الشعوب. وذلك هو بالضبط جوهر (العولمة) في صورتها الجديدة.

3 — التعريف النوري: وأما في اصطلاح بديع الزمان النورسي؛ فالأخلاق هي:

— الأخلاق: هي نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة؛ لاكتساب معناها الكوني.

ولتبين التصور الشمولي لهذا التعريف، الذي ركبناه من استقراء نصوص رسائل النور، كما وضعها بديع الزمان رحمه الله؛ فإنه يجدر بنا أن ندرس عناصره فقرة فقرة؛ حتى يتسنى لنا تبين جوهر المفهوم الذي استنبطه بمنهجه التفكير من القرآن العظيم. وبيان ذلك هو كما يلي:

1.3 — الأخلاق نظام القرآن:

إن الهم الرسالي الذي كان يحمله بديع الزمان رحمه الله، والقصد الإصلاحية الذي كان يسكن وجدانه وهو يكتب رسائل النور؛ جعله يمضي في تدبره للقرآن، وتفكره في أحوال النفس والمجتمع؛ فقاده ذلك إلى اكتشاف حقيقة الأخلاق في القرآن. حيث عرضها بعد ذلك في رسائله على أنها هي كل نظام القرآن، أي النسق الكلي للقرآن. فرسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق، بمعنى كلي. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية، والاجتماعية، والوجودية، مع سائر الكائنات؛ إنما هي أخلاق. وهذا مفهوم خاص لمعنى (أخلاق)، الذي يحصره بعضهم فقط في مجال (الفضائل)، بمعناها الاجتماعي الصرف. و(الفضائل) — في المعنى السائر المتأثر بالدلالة الفقهية — مفهوم موح بنوع من النفل الزائد، الذي يفعله الإنسان تطوعا. وهذا معنى

فرعي، بينما تصور النورسي للأخلاق قائم على أهما (أصول) لا (فروع)، كما سيأتي بنصه وتعبيره، وعلى أهما (قانون). بمعنى نظام مطرد، ونسق كلي، ولسيت أحوالا تقبل الحدوث كما تقبل التخلف؛ وعلى أهما (قواعد). بمعنى ضوابط، سيقت لتكييف السلوك الإنساني، والتصرف البشري تكييفاً تربوياً، وفق ميزان معين، ثابت، لا يلحقه العبث ولا تتلمه الفوضى. إن تصور الأخلاق على أهما (فضيلة نافلة) هو مفهوم جزئي. والاقتصار عليه يؤدي إلى تحريف الدلالة القرآنية، ذات البعد الشمولي العميق لمصطلح (أخلاق). وأحسب أن تحقيق مفهوم الأخلاق نوع من التجديد، الذي رامه بديع الزمان، في عرض حقائق القرآن، من خلال رسائل النور، وهو يتحدى الغزو الفكر والحلقي الغربي. إن تصور النورسي لهذا المعنى المستنبط من القرآن قائم على دلالة أخرى تماماً. إنه دال عنده على كل الحركة الإنسانية في النفس والمجتمع، فلا يبقى بعد ذلك شيء من تصرف الإنسان إلا وهو مشمول بمصطلح (الأخلاق). ومن هنا صح أن يكون القرآن — كل القرآن — إنما جاء لبناء الأخلاق، بهذا المعنى الشمولي الواسع. وذلك هو منطوق حديث عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت قولتها المشهورة: (كان خلق القرآن)⁽¹⁵⁾ هكذا على سبيل الاستغراق الشامل لكل القرآن. وهو أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)⁽¹⁶⁾ هكذا بهذا الحصر الشامل المستغرق لكل مقاصد البعثة المحمدية. فكان إذن أن القرآن كله — من حيث هو نظام رباني، أنزله الله لتنظيم حياة الإنسان التعبدية والنفسية والاجتماعية — إنما هو نظام للأخلاق. ولذلك بين بديع الزمان النورسي أن أخلاق القرآن قد وسعت — بهذا المعنى — كل ما جاءت به الكتب السماوية السابقة وزيادة. قال رحمه الله: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق (...). إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعن لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة)⁽¹⁷⁾.

ولذلك فإن التغيير الذي أحدثه القرآن في المجتمعات التي دانت له كان عميقاً وجذرياً. إنه بهذا المعنى الذي قدمه للأخلاق؛ غير البنية الثقافية والوجدانية، لكل الأعراق التي انتسبت إليه، وجعلها منصهرة في نسق واحد، ونظام واحد، هو أخلاق القرآن. إن

دمج العرقيات والجنسيات المختلفة والمتناقضة؛ لغة، وتاريخاً، وسلالة، وعادات وتقاليد... إلخ، في خفقة وجدان واحد؛ هو من أغرب المستحيلات قطعاً! ولكن ما (المعجزة) إن لم تكن هي صناعة المستحيل؟ وما القرآن إن لم يكن هو كتاب الإعجاز الأول بلا منازع؟

إن كثيراً من الأحكام الدينية، والتشريعات القرآنية، التي دأب بعض الكتاب على تصنيفها خارج مفهوم الأخلاق، جعلها بديع الزمان من صميم الأخلاق، وأصولها. إن القوانين التشريعية الإسلامية كلها؛ إنما أنزلها الشارع الحكيم على أنها سلوك خلقي لا مجرد قانون ملزم؛ شريعةً وعقوبةً. بل إن السر في التزام الناس بالقانون التشريعي الإسلامي إنما يرجع إلى عمقه التخلفي الرفيع. فهذا الجمع والتوفيق بين الأمرين هو الذي سعى به القرآن لبناء الإنسان. إن بديع الزمان لم يكن يرى في نصوص التشريع إلا نظاماً أخلاقياً اجتماعياً بديعاً. قال رحمه الله في نص عجيب، مكتنز بحكم بالغة: (إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس... إلخ⁽¹⁸⁾).

إن أدق أحكام القرآن الجزئية في التشريع الاجتماعي مثلاً؛ ما هي إلا عنصر من عناصر نظام الأخلاق، سواء كانت من أحكام المواريث كما رأيت في النص المذكور، أو من أحكام العقود... إلخ. كل ذلك وما في معناه — مما قد لا يبدو للناظر، غير الخبير بطبيعة القرآن؛ أنه ذو بعد أخلاقي — إنما هو تشريع راجع إلى مفهوم (التعبد) في الإسلام. وإنما مفهوم التعبد قائم على معنى (الحبة). وذلك هو جوهر الأخلاق في الدين. (الحبة) هي أساس التشريع الإسلامي. وأي خُلُق صالح في سلوك الإنسان خارج عن معنى الحبة؟ وأي آية لا ينتظمها ذوق الحبة في القرآن؟ فمن أهم الفروق — التي ذكرها النورسي — بين الفلسفة والشريعة؛ أن هدف الفلسفة إنما هو (المنفعة)، بينما الشريعة (هدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأها: المودة والتجاذب)⁽¹⁹⁾.

ومن هنا أبصر بديع الزمان أن كل آي القرآن مشع بنور الحبة؛ فضلاً عن الآيات التي يصنفها العلماء على أنها آيات الفضائل، التي سبقت أصالة لذلك، والتي هي ظاهرة في النطق بكل معاني الحب.

قال رحمه الله: (لا تجد في القرآن آية إلا توحى بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة — خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقى — وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف، وحسن المقاصد، والصفح عن الشنائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم. ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة، المملوءة بحكمة ورشداً؛ لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن. إنه أبصر كل شيء!)⁽²⁰⁾.

إن الجمال والمحبة أمران مرتبطان. وبما (أن الله جميل يحب الجمال) كما في الحديث الصحيح⁽²¹⁾ فقد تسلسل الكون بشعاع المحبة الصادر عن جمال الأسماء الحسنی. فكان كل من عبّد الله حقاً؛ منتسباً إلى ذلك النور، ومتخلقاً بذلك الخلق الكلي الشامل: المحبة. ومن هنا ارتباط الأخلاق الإسلامية بنظام الكون، من حيث كونه يمثل انعكاساً نورياً للأسماء الحسنی؛ ونظام القرآن من حيث كونه ناطقاً بحقائق الكون، وناظماً لها في سلك العبودية؛ ويهدي النبوة من حيث كونهما أرفع نماذج ذلك الانعكاس والامتثال. ولبدیع الزمان نص بدیع في بيان هذه العلاقات النورية المتوالية في الكون، التي تضرب بنظام الأخلاق القرآني في الامتداد الكوني كله. قال رحمه الله: (لمحبتة سبحانه لجماله؛ يجب حبيبه صلى الله عليه وسلم إذ هو مرآة ذلك الجمال، ولمحبتة لأسمائه الحسنی يجب حبيبه صلى الله عليه وسلم وإخوانه، إذ هو المدرك الشاعر لتلك الأسماء. ولمحبتة لصنعتة سبحانه يجب حبيبه صلى الله عليه وسلم وأمثاله، إذ هو الدال على صنعتة والمعلن عنها، ولمحبتة لمصنوعاته سبحانه يجب حبيبه صلى الله عليه وسلم ومن هم خلفه من المقتدين بهديه، إذ هو الذي يقدر قيمة المصنوعات، ويباركها بـ: "ما أجمل صنعته!" ولمحبتة لمحاسن مخلوقاته يجب حبيبه صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه وإخوانه، إذ هو الجامع لمكارم الأخلاق)⁽²²⁾.

ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أكمل الخلق في تمثل جمال أخلاق المحبة، أو قل: الأخلاق القرآنية. ومن هنا كان عليه صلوات الله وسلامه أجمع الخلق خُلُقاً. لأنه كان أجمعهم للقرآن تطبيقاً وامتثالاً. كما هو منطوق حديث عائشة السالف الذكر. وقد وقف بدیع الزمان على هذا المعنى وقفة خاصة، ونبه إلى ما في ذلك من الدلالة على أنما سنته صلى الله عليه وسلم هي خُلُق القرآن، ولا شيء سوى خلق القرآن، فمن فاته هذا المعنى فقد فاته اتباع السنة. وفي هذا درس بليغ لأئلك الذي يفصلون بين السنة والقرآن،

ويجزئون الأخذ منهما؛ فيغيب عنهم هذا النظر الجامع الذي يبصر من خلاله بديع الزمان الكليات الخلقية في الإسلام. فيكون كثير ممن يدعون الالتزام بالسنة؛ أبعد ما يكونون عنها؛ اتباعا ومقاصد. ذلك درس عظيم ما أحوج حركات التجديد الديني اليوم إلى إدراكه فكرة ودعوة. قال رحمه الله: (ووصفه الصحب الكرام كما وصفته الصحابة الحليمة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كان خلُقه القرآن). أي: أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسن، بل إنه خلق فطرة على تلك المحاسن (...). ينبغي أن يكون كل من أفعال هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وأقواله وأحواله، وكل من حركاته نموذج اقتداء للبشرية. فما أتعس أولئك المؤمنين من أمتة الذين غفلوا عن سنته صلى الله عليه وسلم ممن لا يباليون بها، أو يريدون تغييرها، فما أتعسهم! وما أشقاهم!)⁽²³⁾. بل إن مقياس اتباع السنة إنما هو رهين بدرجة التخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أن الله (سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته يحب محمداً صلى الله عليه وسلم، إذ هو في ذروة الأخلاق الحميدة، كما اتفق عليها الأولياء والأعداء، ويجب كذلك من يتشبهون به في الأخلاق، كلا حسب درجته)⁽²⁴⁾.

إن إحالة أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم على القرآن، إنما معناها إحالتنا على الكون كله! ومن هنا نتبين سر وقوف النورسي على هذا الحديث العجيب (كان خلقه القرآن). حيث اتخذت الأخلاق الإسلامية عنده نظاما كونيا، كما قلنا في التعريف: (هي نظام القرآن — إلى قولنا — لاكتساب معناها الكوني) ذلك أن القرآن في المفهوم التفكري لدى بديع الزمان هو كشاف كتاب الكون الكبير. والتخلق بأخلاق القرآن هو ضرب في عمق الكونية، وارتباط بأخوة الكائنات جميعا من حيث هي سيارات في نظام الكون البديع على وزان فلك القرآن. ولم يزل تعريفه رحمه الله للقرآن كما درسناه بمحله⁽²⁵⁾ من أعمق الالتفاتات التفسيرية في رسائل النور. وإنما نقتطف منه ههنا عبارات تدل على بعض المقصود؛ مما يساعدنا في دراسة مفهوم الأخلاق عنده. قال رحمه الله: (فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة (...). وكذا هو أساس وهندسة

وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخرى. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه. وكذا هو مرب للعالم الإنساني.⁽²⁶⁾

ومن هنا كان تخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخلاق القرآن كمالات عظيمات، وليس عبثاً أن ترد آية في كتاب الله ناطقة بذلك في حق محمد صلى الله عليه وسلم شهادة تعديل كامل من رب الكون، بجملة اسمية دالة على الثبات والاستمرار، في قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4).

وبذلك صار خلقه صلى الله عليه وسلم في حد ذاته معجزة، إضافة إلى ما تلقاه من معجزة القرآن العظيم. قال بديع الزمان: (إن أعظم معجزة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد القرآن الكريم هو ذاته المباركة، أي ما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق السامية، والخصال الفاضلة، وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلاً)⁽²⁷⁾. وما ذلك طبعاً إلا من حيث (كان خلقه القرآن)! وذلك معنى وصفه صلى الله عليه وسلم أيضاً بأنه (كان قرآناً يمشي بين الناس)!

إن القرآن من حيث هو كلام الله الأزلي؛ كان في تربيته للإنسان على أخلاقه؛ ناظماً له في سلك العبودية، السائر إلى الله عبر أنوار الأسماء الحسنى، والصفات العلى. وتلك هي الأخلاق الكونية الكبرى، التي جاء الإسلام ليصنع الاجتماع الإنساني على وزانها، وينشئه على مقياسها ونظامها. قال بديع الزمان: (إن الكون العظيم يكون أمامي بمثابة حلقة ذكر في أثناء قراءتي لخلاصة الخلاصة، ولكن لأن لسان كل نوع من الأنواع واسع جداً، يتحرك العقل عن طريق الفكر كثيراً؛ كي يدعن بالأسماء الإلهية وصفاتها بعلم اليقين، وبعد ذلك يتمكن أن يبصر ذلك بوضوح. وعندما ينظر إلى الحقيقة الإنسانية، في ذلك المقياس الجامع، في تلك الخريطة المصغرة (...). فإنه يصدق تلك الأسماء والصفات، بإيمان، واطمئنان، ووجدان جازم، شهودي وإذعاني (...). فيكسب الإيمان الحقيقي، ويدرك المعنى الحقيقي للحديث الشريف: "إن الله خلق الإنسان على صورة الرحمن"⁽²⁸⁾. لأن المراد من الصورة، السيرة والأخلاق والصفات)⁽²⁹⁾.

إن هذا النص العجيب يحيلنا على مفهوم (الكون) عند الأستاذ النورسي. ولقد وجدنا أن من خواصه التعريفية أنه (منعكس عن الأسماء الحسنى)، بمعنى أنه مفعول للربوبية العليا، المتصفة بصفات الكمال، والمتسمة بأسماء الجمال؛ مما يؤول مرة أخرى

بمذه الكثرة المتناثرة في الوجود إلى الوحدة، وذلك من خلال الرجوع إلى رب واحد عبر أسمائه الحسنى، المشعة على الكون؛ إيجادا ورعاية ورحمة. فما من شيء إلا وهو مرتبط في وجوده باسم من أسماء الله الحسنى، ذلك أن الرب العظيم — سبحانه وتعالى — متصرف في الكون خلقا وإيجادا؛ من حيث هو خالق، مصور، بديع، محي، مميت، رازق، مهيمن، رحمن، رحيم... إلخ. فأى شيء إذن يمكن تصوره خارج هذه الدوائر الربانية؟ من هنا كان الوجود الحقيقي للأشياء إنما هو بالأسماء، لا بذوات تلك الأشياء⁽³⁰⁾.

فما وجود الإنسان إذن؛ إلا رشحة من رشحات الأسماء الحسنى؛ خلقا ورعاية وتكريما. وما غاية ذلك كله إلا أن يسعى هذا المخلوق المكرم إلى تحقيق العبودية؛ بدورانه حول هذا الفلك العظيم؛ رغبة ورهبة. وذلك هو ما قصده بديع الزمان من تعبير (التخلق بالأخلاق الإلهية)، أو تعبير (التخلق بأخلاق الله)، الذي أورده في كثير من المواطن، من مثل قوله رحمه الله: (إن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والحصول الحميدة — التي يأمر بها الله سبحانه — وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبِّح ويقُدِّس كماله تعالى)⁽³¹⁾، بمعنى أن الانتساب إلى الله عبادة وسلوكا هو استنارة بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ رغبا ورهبا. وعلى هذا المعنى حمل دلالة الحديث المذكور: (إن الله خلق الإنسان على صورة الرحمن). فالاعتراف بالعجز والضعف البشريين، يؤول إلى طلب الانتساب إلى القوة والعظمة، والاحتفاء بظلالهما. وإنما كمال ذلك وحقيقته متمثل في ذات الله رب العالمين. وطلب السمو بفعل الخضوع هو عين العبودية، وهو عين التخلق بأخلاق الله. ذلك أن (من القواعد المقررة للنسوة في حياة الإنسان الشخصية، التخلق بأخلاق الله. أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين بأخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم)⁽³²⁾.

إن بديع الزمان بهذا الطرح الشمولي لمعنى الأخلاق، يعرض على العالم فعلا نظام القرآن عرضا اجتماعيا، ويعرض الاجتماع عرضا كونيا؛ وبذلك يبلغ قمة التحدي في سياق بناء المجتمع الإنساني من خلال المنهج القرآني العظيم، إذ تتحول الآيات بين يديه إلى سلاح يصد به هجمات المغرضين الذين يحطون من شأن الأخلاق الإسلامية،

ويدعون إلى إباحية وعلمانية تهلك الحرث والنسل، وتُفقد الهوية الإسلامية خصوصيتها الحضارية، وانتماها القرآني، وامتدادها الكوني. إنه بهذا الفعل يحاصر أخلاق الفلسفة الغربية في زاوية الشهوات الحيوانية، ومستنقع النزوات البهيمية، في حين يرتفع بالخلق القرآني إلى أفق الكون الفسيح، ناظماً لسلوك الإنسان المسلم في سلك الوجود السرمدى، الذي يمنحه الخلود الحقيقي، والتوحيد الحقيقي. إذ يصل وجدانه بأنوار أسماء الله الحسنى، ويجد بذلك حقيقة ماهيته الوجودية. فلا يصدر منه شر ولا أذى. ومن هنا كان المسلم مصدر أمن للعالم ومصدر سلام.

ونقتطف ههنا كلمة لأستاذنا الدكتور محسن عبد الحميد في تقديمه لكتاب إشارات الإعجاز، تبين مدى وعي النورسي بخطورة الحرب الأخلاقية، التي يقودها الغرب ضد المسلمين، ومدى تأثير ذلك على نظام القرآن كله، من حيث إن الأخلاق الإسلامية إنما هي نظام القرآن. يقول حفظه الله: (لقد كان أسلوب رسائل النور في وضوحه الحاسم، وهدوئه العلمي الباهر، وبيانه الذوقي الرفيع، وحججه العقلية الدامغة؛ هو البديل العصري الذكي؛ لأسلوب إثبات إعجاز القرآن اللغوي، والبياني، والعقلي، من خلال نظرية النظم، لأن ما أثاره الأعداء لم يكن يتصل بالطعن في بلاغة القرآن، أو مناقشة ما يتعلق بإعجازه، أو بتناسب سورته وآيه وكلماته. وإنما كان يركز على شن هجوم عام، شامل، على أصول الإيمان، وحكمة التشريعات، ومحاولة تفكيك النظام الأخلاقي الذي جاء به القرآن الكريم. لقد وعى الأستاذ النورسي التغييرات الهائلة، التي أحدثها الصراع الجديد؛ فتوجه إليها بحقائق القرآن، التي قدمها من خلال أصول المنطق العقلي الفطري، وعلوم ومعارف عصره)⁽³³⁾.

حقيقة؛ لقد عاجل بديع الزمان المسألة الخلقية بمنهج استبصاري غريب! فقد كشف الستار ببصيرته النافذة، وفراسته المستنيرة بنور القرآن؛ فخاطب ما كان يتوقعه من حال الأمة بعد خمسين سنة قادمة، وهو تماماً ما نشهدها عليه اليوم من أحوال، في مستهل الألفية الثالثة! يقول رحمه الله عن أوضاع زمانه، وما توقعه بعدها: (فالأوضاع الحاضرة ستعكس على الجيل الآتي لهذه الأمة - البطلة، المتدنية، الغيورة على شرفها - بعد خمسين سنة. ولا يخفى عليكم ما ستؤول إليه السجايا الدينية، والأخلاقية الاجتماعية)⁽³⁴⁾، ثم يتوجه بالكلام إلى الجيل الذي يأتي بعده، منادياً بصورة عجيبة: (يا إخواني! ويا زملائي الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!)⁽³⁵⁾

إن هذا الحدس الاستبصاري الكاشف، الذي كان يتمتع به بديع الزمان النورسي رحمه الله، هو الذي ساعده على النفاذ — في معالجة المسألة الخلقية — إلى أغوار النفس الباطنة، تشخيصا وتعليلًا، ثم تطبيقًا ووصفًا. فكما كان يحاول إزاحة حجب الزمن؛ لاستبصار المستقبل؛ فقد كان يحاول إزاحة حجب البدن؛ لاستبصار ماهية النفس؛ قصد تهذيبها وتشذيبها، وطبع أخلاقها. وبيان ذلك كما يلي:

2.3 — الأخلاق تطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها

إن مفهوم الأخلاق لدى بديع الزمان — كما تَقَطَّرَ من تفكراته القرآنية — يرجع إلى معنى تربوي خصوصي. إذ هو تنقيح لـ (ماهية الإنسان) من شوائب الأنانية الوجودية، وحذف الصنمية الكاذبة. وذلك بتحلية صورة الروح الإنسانية، وتصفيتها حتى تبدو مرآتها على أعلى حقائقها، من حيث كونها أكمل رمز للعبودية. وفي ذلك تتميز الأخلاق القرآنية عن أخلاق الفلسفة، التي تكثف الحجب الكاذبة على حقيقة الإنسان وماهيته، فتوهمه أنه إله من دون الله الواحد القهار. إن الفلسفة تنطلق منذ القدم من أسطورة (انتزاع) شعلة المعرفة من (إله المعرفة)، إنها سلبية مبدأ الصراع بين الآلهة والإنسان. ولذلك أنتجت الفكر الفلسفي الغربي ذا الطبيعة المتمردة على كل شيء، بما في ذلك القيم الإنسانية المثلى. إن تلميذ الفلسفة يسعى إلى عبادة نفسه وتمجيدها. وفي هذا السياق فرق بديع الزمان بين مفهوم (التخلق بأخلاق الله)، الذي سبق بيانه، وبين مفهوم (التشبه بالله)، الذي هو غاية الفكر الفلسفي في نظريته الأخلاقية. فإذا كان الأول نفيًا (للأنثى)، فإن الثاني ترسيخ لها وتصنيعها! قال رحمه الله في تممة نص سبق إيراده في سياق التخلق بأخلاق الله: (من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية، **التخلق بأخلاق الله**. أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين بأخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم. فأين هذه القاعدة الجليلة من قول الفلسفة: " تشبهوا بالواجب " ! التي تقررها غاية قصوى للإنسانية؟ أين ماهية الإنسان التي عجزت بالعجز، والضعف، والفقر، والحاجة غير المحدودة؛ من ماهية واجب الوجود؟ وهو الله القدير القوي الغني المتعال!! (36)

من هنا إذن؛ كانت الأخلاق عند النورسي (تطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها)، كما عبرنا في التعريف. بحيث تبرز طبيعتها الاستنادية ووجودها الحرفي؛ حتى تتعلق بخالقها فناء وبقاء، وتتفانى في خدمة المقاصد التعبديّة لوجودها. وتكسب بذلك معناها وتحقق ماهيتها. ومن هنا أيضًا حرص بديع الزمان على الاهتمام بصورة الروح بدل

صورة الجسم؛ رغبة في تجلية الماهية الروحية للإنسان التي هي سر البقاء فيه؛ على حساب الماهية الطينية، التي ليست سوى مظهر من مظاهر الفناء. وبذلك فسر رحمه الله — في إشارات لطيفة — سر فرض الحجاب على المرأة المسلمة. إذ لم يعتبره فقط نوعاً من الوقاية من الوقوع في الغواية والفتنة، وإنما اعتبره رمزاً عميقاً للدلالة على الماهية الروحية للإنسان. فكأنه أخفى الصورة الكاذبة؛ ليدل على الصورة الحقيقية. وهذا غاية من الدقة واللطافة في تدبير النصوص القرآنية، والتفكير في الطبيعة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي، في مثاليته الراقية. يقول النورسي رحمه الله: (إن القرآن يأمر النساء أن يحتجن بحجاب الحياء؛ رحمةً بهن، وصيانة لحرمتهن وكرامتهن؛ ولكيلا تهان تلك المعادن الثمينة، معادن الشفقة والرأفة، وتلك المصادر اللطيفة للحنان والرحمة؛ تحت أقدام الذل والمهانة، ولكي لا يكن آلة لهوسات الرذيلة، ومتعة تافهة لا قيمة لها. أما المدنية فإنها قد أخرجت النساء من أوكارهن وبيوتهن، ومزقت حجابهن، وأدت بالبشرية إلى أن يجن جنونها. علماً أن الحياة العائلية إنما تدوم بالحب، والاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة. بينما التكشف والتبرج يزيلان تلك المحبة الخالصة، والاحترام الجاد، ويسممان الحياة العائلية؛ ولا سيما الولع بالصور فإنه يفسد الأخلاق ويهدمها كلياً، ويؤدي إلى انحطاط الروح وترديها)⁽³⁷⁾.

إن الصورة مضادة للروح، وقاتلة لها شعوراً وإحساساً. بمعنى أن الذي استهوته الصورة لن يرى الجمال الحق، بل سيعمى عن صورة الروح الخفية، التي تتجلى في إنسانية المرأة، ورقتها، وشفقتها السيالة جمالاً وكمالاً. والأخلاق إنما هي التربية على هذا، وطبع الرغبة الإنسانية؛ تهذيباً وتشذيباً؛ على حب النظر إلى جمال الروح، والكشف عن كمالاته. ولذا كان النظر إلى جسم المرأة مثلاً؛ هو كالنظر إلى جثة الموت سواء. فأى جمال فيها وأي بهاء؟ ذلك (أن النظر بدافع الهوى وبشهوة إلى جنازة امرأة حسنة، تنتظر الرحمة وترجوها؛ يهدم الأخلاق ويحطها، كذلك النظر بشهوة إلى صور نساء ميتات، أو إلى صور نساء حيات - وهي في حكم جنائز مصغرة لهن - يزعزع مشاعر الإنسان ويعبث بها، ويهدمها)⁽³⁸⁾. وهذا سر من أهم أسرار نجاح الأسر أو فشلها، فإذا ما تعلق نظر القلب بالروح، كان ذلك سبباً من أسباب الدوام؛ لأن جمال الروح خالد لا يفنى. وإذا ما تعلق بالصورة الجسدية آل حتماً إلى الذبول والفناء؛ بذبول المتعلق به، وهو الصورة الجسمية الفانية. ثم إن جمال الصورة الجسمية نفسه ما هو — عند المبصرين جوهره لا شكله فقط — إلا انعكاس لجمال الروح. فمن نظر إلى الروح

وجمالها؛ كان له في جمال الصورة الجسمانية ما لا يجده فيها غيره، ممن كان نظره حسياً فقط، حسيراً، لا يتعدى حدود الجلد؛ إلى ما هنالك من جمال روحي فياض. إن الزوج الذي يحب الروح الساكن في كينونة زوجته، يرى منها حقيقتها، ولذلك فهو يعرفها حقاً. أما الذي لا يرى من زوجته إلا أشكالها وأشباحها فهو لا يعرفها؛ ولذلك فإنه يصطدم معها اصطداماً كلما خفتت النوازع المادية التي ربطته بها. ولأمر ما ذكر الله تعالى في القرآن العظيم؛ أن الزواج إنما هو زواج أنفس، لا زواج أبدان، في إشارة لطيفة عجيبة من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) (النساء: 1).

ومن هنا تتدفق العواطف الجياشة بالحب الحقيقية، ويجد الزوج لزوجته من الفضل ما لا يجده لنفسه هو! وبذلك تصان حقوق المرأة في الإسلام، صيانة وجدانية، لا صيانة قانونية كاذبة، لا تكاد تذكر حتى تخرق. كما هو الحال اليوم في بلاد الغرب، الذي يملى على المجتمعات الإسلامية ما فشل هو في تحقيقه فشلاً ذريعاً! وإن بديع الزمان النورسي كان يعيش عصره بملاحظاته الدقيقة (من نهاية القرن التاسع عشر؛ حتى النصف الأكبر من القرن العشرين)، حيث كانت هذه المقولات في بدايتها آتت، لكنه أبصر بفراسسته الدقيقة مآلاتها فأندر بخطورتها، ورد عليها بإشارات اللطيفة وتفكراته العميقة، مبيناً من خلال ذلك حقيقة الأخلاق في الإسلام، وميرزا صورة الروح على حساب صورة البدن الكاذبة. قال رحمه الله في محبة الزوجة: (عليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. وإياك أن تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل أوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرورة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقتها. وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماء هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. ومحبتهم تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلا تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها؛ بزوال الجمال الظاهري)⁽³⁹⁾.

إن (المستقبلية الوجودية)، و(المستقبلية الاجتماعية) التي كانت تطبع نظرات بديع الزمان جعلته ينفذ ببصره إلى أعماق الحركة التاريخية، ويصير ما يتوقع أن تصير إليه الحالات من مآلات! فصار يعالج المسألة الخلقية بمنهج استبصاري نادر ومؤثر. ومن ألفت إشارات رحمه الله في هذا السياق قصته التي حكاها في كتاب (الشعاعات)، حيث كان مرة في سجن (أسكي شهر) يطل من النافذة، فرأى بنات صغيرات يلعبن ويمرحن

في عيد الجمهورية، فانخرط في بكاء حار، أثار انتباه رفقاء سجنه؛ فاستفسروه عن سبب بكائه؛ فكانت قصته الغريبة. قال رحمه الله: (كنت في أحد أيام عيد الجمهورية جالسا أمام شبك سجن "أسكي شهر" الذي يطل على مدرسة إعدادية للبنات.. وكانت طالباها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة وفنائها، ببهجة وسرور، فترأت لي فجأة على شاشة معنوية ما يؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة! فرأيت: أن نحواً من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة؛ يتحولن إلى تراب ويعذبن في القبر! وأن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات، بلغن السبعين والثمانين من العمر! شأهت وجوههن، وتشوه حسنهن، يقاسين الآلام، من نظرات التقزز والاستهجان؛ من الذين كنّ يتوقعن منهم الإعجاب والحب، حيث لم يصنّ عفتهن أيام شباهن! نعم رأيت هذا بيقين قاطع، فبكيت على حالهن المؤلمة بكاء ساخناً؛ أثار انتباه البعض من زملاء السجن، فأسرعوا إليّ مستفسرين!)⁽⁴⁰⁾.

إن بكاء بديع الزمان يرجع إلى أنه كان يبصر الصورة الحقيقية للإنسان: صورة الروح. لقد كان ينفذ ببصره من خلال صورة البدن؛ إلى ما هنالك من حقائق باطنة: النفس الزكية أو النفس الشقية، فيبصر في ضوء ذلك مآلات المستقبل، ويكي لهول ما يرى! لقد كان منهجه التفكري الاستبصاري قائما على قراءة حركة التاريخ، في صيرورتها المقبلة، بقواعد العلم، والسنن الجارية في الكون وفي المجتمع. ولذلك جاء في قوله العجيب: (لو أمكن عرض ما سيقع من أحداث مقبلة بعد خمسين سنة مثلاً، على شاشة الآن، مثلما تُعرض الأحداث الماضية عليها؛ لبكى أربابُ الغفلة والسفاهة بكاءً مرّاً أليماً على ما يضحكون له الآن!)⁽⁴¹⁾

إن من أسباب الغواية أن الإنسان إذ تأسره صورته الخزفية؛ يعيش للحظة التي هو فيها. وإن تفكر في المستقبل؛ ففي اتجاه العيش الحيواني الساذج، ليس إلا. إنه عادة ما يضعف عن محاولة حرق حواجز النفس؛ إلى التفكير في نهاياتها، وفيما تحتمله تلك النهايات من مفاجآت واحتمالات! فذلك أمر تكرهه النفس بطبيعتها. ومن هنا كان أسلوب النورسي حملها على تلك المشقة، التي هي حقيقة مرة، ولكنها حقيقة! حتمية لا مفر منها: الهرم والموت! ثم ماذا بعد؟ أين صورة الإنسان؟ أين ماهيته؟ تلك هي القضية! قال في اللمعات، بعدما أبصر صور الشباب في مآلاتها المقبلة: (إن خمسة من كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن، والذين يرحون في نشوة وبهجة، سيكونون كهولاً

بعد خمسين عاماً، وقد انحنى منهم الظهور، وناهز العمر السبعين! والخمسة والأربعون الباقية يُرمون في القبور!⁽⁴²⁾

لقد كان هذا المنهج الفعال هو المفتاح العجيب، الذي استعمله الأستاذ النورسي؛ للنفوذ إلى صورة الروح — التي هي مناط التخلق — لتجلية ماهيتها الإنسانية، بما ذكرناه مفصلاً. فالماهية التي يراد طبعها على صورة الروح، بالتخلق؛ يجب أن تتجاوز صورة البدن، ولا يمكن ذلك إلا بالنفوذ الاستبصاري إلى أغوار النفس؛ لتهديب (أناها) بالوسائل التربوية، التي هي أساس التخلق التعدي، وذلك كما يلي:

3.3 — الأخلاق تسلك بالروح الإنسانية مدارج التربية والمجاهدة:

إن المنهج الذي اعتمده الأستاذ النورسي للوصول إلى حقيقة الأخلاق من حيث هي نظام القرآن هو المنهج القرآني نفسه، والذي سماه في غير ما موضع من رسائله بـ(طريق القرآن)، أو (المعراج القرآني) الذي هو أقصر الطرق الموصلة إلى الله، والتخلق بأخلاقه جل وعلا، بما ذكرنا من معنى. يقول رحمه الله: أما (المعراج القرآني) الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأتمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!⁽⁴³⁾

والمنهج القرآني لطبع الروح بماهيتها الخلقية؛ راجع في دلالاته إلى معنى التربية والمجاهدة. ولذلك كان عنصراً جوهرياً في (مفهوم الأخلاق) لدى بديع الزمان؛ حيث إن الأخلاق كسب وصفي، ينطبع على صورة الروح الإنسانية، بفعل السلوك التربوي اليومي، الذي يربي النفس بصغار العلم قبل كبارها، على أساس الربانية المذكورة في قوله تعالى: (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) (آل عمران: 79).

إذن يمكنك أن تقول: (إنما الخلق بالتخلق) على وزن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه)⁽⁴⁴⁾.

والتخلق إنما هو: التربية والمجاهدة. ومن هنا قال بديع الزمان في كلمة جامعة مانعة: (أما مسلكنا: فهو التخلق بالأخلاق المحمدية صلى الله عليه وسلم وإحياء السنة النبوية)⁽⁴⁵⁾. ولا تخلق إلا بمجاهدة؛ وذلك هو نص قوله من أن (نشوء الحسيات العالية ونمو الأخلاق إنما هو بالمجاهدة، وتكتمل الأشياء إنما هو بمقابلة الأضداد ومزاحمتها)⁽⁴⁶⁾. وفي هذا التعبير إشارة إلى ما يقصده (بالمجاهدة) أيضاً من معاني التدافع النفسي، الحاصلة

لدى المسلم الذي عزم على مواجهة عدوى فساد الأخلاق، فينخرط بذلك في صراع مع الشهوات الحيوانية، التي تتور في نفسه، وتريد أن تنحرف به عن فلكها السيار مستقيماً على نظام القرآن، الدائر على محورها النموذجي في كمال الأخلاق: الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . قال الأستاذ رحمه الله في بيان ما ينبغي أن تكون عليه (جمعية) تأسست في زمانه، وتسمت باسم: (الاتحاد المحمدي): (فجمعية مثل هذه، رئيسها هو: فخر العالمين سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ومسلكتها ومنهجها: مجاهدة كل شخص نفسه أي التخلق بأخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وإحياء السنة النبوية، ومحبة الآخرين، وإسداء النصح لهم، ما لم ينشأ منه ضرر)⁽⁴⁷⁾.

إن المجاهدة في هذا الزمان هي بمثابة حرب على المستوى الباطني والنفسي، يخوضها الإنسان مع نوازه الشريرة. ولذلك فقد أورد قصة تمثيلية — كعادته في عرض أفكاره — من الحرب العالمية الأولى، في سياق استنباط العظات والعبر؛ منزلاً حقائقها بصورة مجازية على حرب الإنسان مع النفس ومع الشيطان، فقال: (وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنابا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والإنس؛ إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المين)⁽⁴⁸⁾.

فالمجاهدة ليست نزهة، بقدر ما هي عملية وجدانية، تنتقل بالطبيعة البشرية من طين العادات إلى ماء العبادات. وليس غير القرآن أقدر على هذا التحويل الجبلي العجيب، وهذه الصناعة التربوية العميقة. ومن هنا لم يزل بديع الزمان منبهاً بتلك العملية التربوية التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية القرآن، وهو يقوم بتحويل قبائل العرب من أخلاق البداوة والتوحش إلى أخلاق القيادة والسيادة؛ حتى صاروا كأكرم ما تكون الأمم في التاريخ! من معاني الفضيلة والمثل العليا. فقد قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في موطن: (فإن شئت أن تعرف أن ما يجرّكه، إنما هو قوة قدسية، فانظر إلى إجراءاته في هذه الجزيرة الواسعة! ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيد الأمم المتمدنة)⁽⁴⁹⁾.

وقال في موطن آخر؛ متفكراً ومتأملاً؛ كيف أن هذا النبي الأمي (عليه الصلاة والسلام) قد (غلب على الأفكار، وتجنب إلى الأرواح، وتسلبت على الطبائع، وقلع من أعماق قلوبهم العادات والأخلاق الوحشية، المألوفة، الراسخة، المستمرة، الكثيرة. ثم غرس في موضعها في غاية الإحكام والقوة - كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم - أخلاقاً عالية وعادات حسنة. وقد بدّل قساوة قلوب قوم حامدين في زوايا الوحشة بحسنيات رقيقة، وأظهر جوهر إنسانيتهم، ثم أخرجهم من زوايا النسيان ورقى بهم إلى أوج المدنية، وصيّرهم معلمي عالمهم، وأسس لهم دولة عظيمة في زمن قليل. فأصبحت كالشعلة الجواله والنور النوار؛ بل كعصا موسى تتلعب سائر الدول وتمحوها. فأظهر صدقه ونبوته وتمسكه بالحق؛ إلى كل من لم تعم بصيرته⁽⁵⁰⁾.

ذلك ما دفع الأستاذ النورسي إلى البحث عن أسرار التحولات، ومفاتيح التغييرات، التي أحدثها القرآن في أخلاق الناس؛ عساه يمسك برأس الخيط الذي يعيد به تشكيل المجتمع الإسلامي المعاصر، ويعيد تركيبه على أساس تحديد الدين للأمة، كما هو موعود به في الحديث الشريف. ومن هنا وصل إلى أن سر التغيير الذي أحدثه القرآن في الإنسان هو أنه ربط المسلم بحقيقة ماهيته الجوهرية القائمة على التنكر (للأننا)، بمعناها الوجودي. فعقد لذلك مقارنة لطيفة بين تلميذ التربية القرآنية وتلميذ الفلسفة، نوردها مختصرة فيما يلي، قال رحمه الله: (للوصل إلى مدى الفرق بين التربية الأخلاقية التي يربي بها القرآن الكريم تلاميذه، والدرس الذي تلقنه حكمة الفلسفة، نرى أن نضع تلميذيهما في الموازنة: فالتلميذ المخلص للفلسفة "فرعون" ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أحسن شئ لأجل منفعته، ويتخذ كل ما ينفعه رباً له (...). بينما تلميذ القرآن المخلص هو "عبد" ولكنه عبد عزيز، لا يستدل بشيء حتى لأعظم مخلوق، ولا يرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله. ثم إنه تلميذ متواضع، لين هين، ولكنه لا يتذلل بإرادته لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه⁽⁵¹⁾).

إن العبودية بمعناها الشرعي في الإسلام هي أساس التربية الخلقية، ومن عجيب الأمر أنها تجمع بين نقيضين العزة والذلة؛ ذلك أن الذلة لله الواحد القهار تورث العبد عزة، من باب (الانتساب)، كما هو مفهومه عند النورسي⁽⁵²⁾ حيث يستفيد عبد الله أنواراً من أسماء الله الحسنى، وتسند صفات الله العلى، من قوة وعظمة وجلال وعزة، فيعز العبد بالانتساب إليه تعالى. ويتخلق في الأرض - من جهة الاجتماع البشري - بأخلاق الصلاح، حيث يعبد ربه بمعاملة الناس، والسعي في حوائجهم صلاحاً وإصلاحاً؛ وهذا

ما يجعل أخلاق المسلم مطبوعة بالصدق والوفاء بصورة مثالية، تنعدم معانيها في غير مجتمع العابدين. إن التلقائية التعبدية التي تطبع الأخلاق الإسلامية هي سر نجاح التربية التي يشرف عليها القرآن. وهذا لا يمكن تصوّره في التربية الفلسفية. إن الاحتكام إلى العقل الفلسفي لا يورث إلزاماً ولا التزاماً. ما دام القلب لا يستجيب بشكل وجداني لعاطفة المحبة، التي هي سر التحولات الخلقية في الإنسان. تماماً كما تحولت قبائل العرب من بداوتها المتوحشة إلى أستاذية عالمية في درس الأخلاق! وبهذا المنطق تحدى بديع الزمان الفلسفة والفلاسفة، وعلماء الاجتماع والسياسة؛ فرفع نداءه عالياً: (فليلق السمعَ علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه!)⁽⁵³⁾ ونادى: (فلترن آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان!)⁽⁵⁴⁾

إن التربية القرآنية تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً سهلاً الانقياد، سهل الإدارة؛ لما له من قابلية تعبدية، ولما له من رغبة في التقرب إلى الله، بالانضباط الخلقى، والالتزام التلقائي لحدود الله؛ (حتى إن قروباً مثلي [يقول بديع الزمان] يستطيع أن ينظر إلى إدارة الدولة التي هي في أوج العلا كالثريا، ويربط نوى الأمان والاستعدادات هناك. وحيث إن كل فعل وطور يصدر يلقي صداه هناك، لذا ستعلى همته كالثريا وتتكامل أخلاقه بالدرجة نفسها، وتتوسع أفكاره بقدر سعة الممالك العثمانية، وسيسبق بإذن الله الأفاضل من أمثال أفلاطون، وابن سينا، وبسمارك، وديكارت، والتفتازاني)⁽⁵⁵⁾.

إن هذا السبق الذي قد يبدو مستحيلاً لغير العارف بالحقيقة القرآنية من جهة، وغير العارف بالحقيقة التاريخية من جهة أخرى؛ ليس ناشئاً عن فراغ، ولا هو وليد استرخاء وترف فكري. كلا! بل هو ناشئ عن مجاهدة ومكابدة. إن المجاهدة التربوية تورث الأمي البدوي، أسرار المعرفة الإيمانية التي هي شرط السبق في قيادة البشر. وها هم هؤلاء الخلفاء الراشدون تحولوا — بفضل ذلك المنهج التربوي العجيب — من رعاة للجمال في بطاح مكة؛ إلى أساتذة في فن قيادة المجتمعات، ذات العرقيات المتباينة، والثقافات المختلفة، واللغات العديدة؛ بجبل واحد ووحيد: هو (جبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)، كما في الحديث الصحيح⁽⁵⁶⁾ أي: القرآن العظيم!

إن المجاهدة التربوية — التي هي أساس التخلق في الإسلام — تصل بالإنسان إلى الغاية الكونية التي خلق من أجلها، والتي تمثل حقيقته الوجودية، لولا تلبيس إبليس على العالمين. ومن هنا كان مفهوم (الأخلاق) في الإسلام — على ما تقطّر لبديع الزمان

النورسي من تفكراته — ذا بعد كوني أعجز الفكر الفلسفي كله؛ أن يقرب من ثرياه، ولا أن يلجم بمنتهاه. إذ بقيت المدينة الفاضلة في الفلسفة اليونانية — بغض النظر عن طبقيتها العنصرية — حبرا على ورق عبر التاريخ! وآل أمر الديموقراطية في الفكر الغربي المعاصر؛ إلى فضيحة عالمية، من بعدما كشرت عن نايها الاستعماري، وتغطست في جلدتها العولمي الجديد!

إن الكونية الخلقية في الإسلام ترفع الإنسان بمعراج المحبة؛ ليرتبط بعلاقة أخوة وجودية؛ مع جميع السائرين في فلك العبادة، من ذوي الحياة والشعور الظاهر والباطن، في هذا الكون الفسيح. ولهذا استطاع الأستاذ النورسي — وهو المولع ببيان الأبعاد الكونية لمفاهيم القرآن — أن يرصد لنا (كونية) حقيقية في مجال التخلق، خلال كليات رسائل النور، ويرسم لطلاب النور مدارجها التربوية؛ خطوة خطوة. فكان أن أكمل بذلك بناء — ما يمكن تسميته — بالتصور النوري لمفهوم (الأخلاق) نظريةً وتطبيقاً. وذلك كما يلي:

4.3 — الأخلاق تُكسب الروح الإنسانية معناها الكوني:

يرجع مفهوم (الإنسان) لدى الأستاذ النورسي إلى معنى خلافي كوني، كما درسناه بمحلته⁽⁵⁷⁾، وذلك من حيث هو (ثمرة شجرة الكائنات)، و(فهرست العالم) على حد تعبيره، الذي تواتر عنه رحمه الله في غير ما موطن من رسائله. وهذا شيء مهم في بحثنا الأخلاقي هذا؛ إذ بدونه لا يمكن تصور حقيقة معنى (الأخلاق والتخلق) عنده على التمام والكمال. ذلك أن البعد الكوني للإنسان، والغاية التعبدية التي خلق من أجلها في هذا السياق أيضاً؛ كلاهما شرط من شروط معرفة الماهية، والخاصية التي تميز مفهوم الأخلاق من حيث هو مصطلح كوني، وليس مصطلحاً (اجتماعياً) وحسب، بالمعنى الضيق للكلمة!

يقول بديع الزمان في كلمة جامعة: (هذا الإنسان، هو سيد الموجودات، رغم أنه صغير جداً؛ لما يملك من فطرة جامعة شاملة. فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة، ومظهرها. لذا فإن له أهمية عظيمة)⁽⁵⁸⁾، ومعنى ذلك أنه مؤهل لمهمة كونية كبرى، هي الإمامة التعبدية، إذ جعله الله إماماً للعبادين ولسائر السائرين من الخليقة أجمعين، كما هو مشار إليه في آية الأمانة: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب: 72). وهو إذ أسكنه الله عز وجل

الأرض؛ جعلها مؤهلة لذلك وصالحة لاستضافة خلفية الله بالمعنى المذكور. فهيأها لجميع أنواع العبادات الإنسانية، العملية والتفكيرية، وجعلها مسالك تقود العباد إلى الله. فكان الإنسان بذلك جامعا — بالقوة دون الفعل — لكل أخلاق الكون التعبدية. فإذا انخرط في سلك المجاهدة التربوية اكتسب صفاتها بالفعل، وإذا تخاذل واستجاب لشهواته بقيت تلك الصفات في قبر (القوة)، وبرزت على حسابها أخلاق الشر والعياذ بالله. ومن هنا كانت الأرض مسجده الكلي المستعد لكل أنواع الصلوات. قال بديع الزمان: (إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة (...)) ومن هنا فإن مهد هذا الإنسان، ومسكنه، وهو الأرض، كفاء للسماء معنى وصنعة. ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه، ومشهر جميع معجزات الصنعة الربانية، ومظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى وبؤرتها، ومعكس الفعاليات الربانية المطلقة، ومحشورها، وسوق عرض المخلوقات الإلهية بجود مطلق، ولا سيما عرضها لكثرة كاترة من النباتات والحيوانات. وهي نموذج مصغر لما يعرض في عالم الآخرة من مصنوعات، ومصنع يعمل بسرعة فائقة لإنتاج المنسوجات الأبدية، والمناظر السرمدية المتبدلة بسرعة، وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة⁽⁵⁹⁾.

كل ذلك إذن؛ إنما هو لإتاحة الفرصة أمام الاستعدادات الفطرية، التي جعلها الله عز وجل في نفس الإنسان؛ لبلوغ كمالات التقوى خُلُقًا وتخلقا. تلك الكمالات التي هي زبدة الشريعة، وغاية الدين، ومجمع البحرين، من سور القرآن وآياته. وقد سبق في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)⁽⁶⁰⁾. هذه غايتك يا ابن آدم فكيف السلوك؟ وتلك هي قصة الكونية الأخلاقية في القرآن منذ بدايتها، فكيف تحقيق مناطها؟ تلك أسئلة جعلها النورسي جزءا من مضمون المفهوم. وبيأها كما يلي:

مجاهدة (الأنا) بين التخلي الاسمي والتخلي الحرفي:

لقد انطلق الأستاذ النورسي في رسم طريق المجاهدة الأخلاقية، من مبدأ تفكري استقرائي، في تشخيص أصل الأمراض الخلقية كلها. وهو رجوعها جميعا إلى غرق الإنسان في مشاهدة (الأنا) الذاتية التي تسكنه، بصورة تعميمه عن مشاهدة أي شيء سواها إلا من خلالها! فتنشأ بباطنه رغبة آثمة لتوظيف كل مصالح الاجتماع البشري لصالحه فقط، ولا عليه بعد ذلك أن يهلك الآخرون. قال رحمه الله: (لو تأملت في مساوئ جمعية البشر لرأيت: أس أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق

الرديلة في الهيئة الاجتماعية، كلمتين فقط: إحداهما: "إن شبتُ فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع!". والثانية: "اكتسبُ أنت لآكل أنا! واتعبُ أنت لأستريح أنا!"⁽⁶¹⁾ فالكلمة الأولى راجعة إلى الرغبة الآتمة في تمجيد (الأنا)، وتمنيعها بذاتها، ولذاها فقط. فهي الهدف من كل ما يراه. والكلمة الثانية راجعة إلى توظيف كل شيء؛ من أجل تحقيق الأولى، فهي وسيلتها.

ومن هنا انطلق بديع الزمان إلى علاج هذا الداء الخلقي العضال، من تبين طبيعة الوجود البشري؛ لتحديد طريق التخلص من سيطرة (الأنا) على الإنسان، وترقيته في مدارج الصلاح الخلقي بصورة تحقق له توازنا فطريا، وكاملا حقيقيا لا وهميا. وذلك أن وجود الإنسان — بالنسبة إلى وجود الخالق جل علاه — إنما هو كسائر الموجودات. أي أنه فرد من المخلوقين يستوي وإياهم في الخضوع لصفة الخالقية. وإنما تميزه من حيث هو أحوجهم جميعا إلى رحمة الله، فهو ثمرة شجرة الكون، وثمر الشجرة هو أضعف ما فيها، وأجمع لخصائصها! وذلك سر إمامته كما تبين بمحله⁽⁶²⁾. أما من الناحية الوجودية الصرف؛ فكل الخلق خاضع للوجود (الحرفي)، ولا شيء داخل المعنى الاسمي إلا اسم الجلال الله الخالق لكل شيء، سبحانه وتعالى. وعلى هذه الأرضية تنبني إمكانية المجاهدة التربوية عبر مسالك التخلق الكوني، إذ يتعين على الإنسان من حيث هو موجود بـ(المعنى الحرفي) أن يسلك مسلك تحقيق (الحرفية). بمشاهدة استنادها إلى (الاسمية) في (الوجود الاسمي) الحق، الذي هو وجود الخالق جل وعلا. ومن خلال مشاهدة الحرفية الذاتية للإنسان في نفسه؛ يشاهد أنفذ كل المخلوقات الكونية تصدقه، ويصدقها، إذ هي جميعا مجرد حروف، تدور في فلك الاسم الأعظم؛ وهكذا يجد صداها جميعا في نفسه، فيشعر بوجوده الحقيقي وقد تخلق بأخلاق كونية شمولية؛ وذلك بالسير إلى الله الذي له الاسم الأعظم، والأسماء الحسنى. وهو معنى (الانتساب الإيماني) أيضا كما درسناه بمحله⁽⁶³⁾.

لقد استعار بديع الزمان اصطلاحات النحاة من (حرفية) و(اسمية)؛ ليوظفها توظيفا تفكريا بديعا. إذ عبر بذلك عن أدق حقائق الوجود وألطفها، وبين بها إعجاز القرآن وإشاراته، في الأنفس وفي الآفاق، ورسم بها مسلكا عمليا خلال آيات القرآن للتخلق الكوني. وأصل دلالة (الحرف) نحويا: أنه غير مستقل بنفسه، في حاجة مستمرة إلى غيره. وهو ما يسميه النحاة بـ(الافتقار). أما (الاسم) فهو مكتف بذاته على دلالته على المعنى⁽⁶⁴⁾.

من هنا إذن كانت الكائنات موجودة بالمعنى الحرفي لا الاسمي، بمعنى أنها غير مستقلة بنفسها، بل هي في حاجة مستمرة إلى خالقها، مفتقرة في بقائها إلى إرادته سبحانه. فالنظر إلى الموجودات على أن وجودها (حرفي) فحسب؛ يجعلها مجرد مظاهر تعكس تجليات الأسماء والصفات، من حيث إن تلك الموجودات مفتقرة إلى خالقها البارئ المصور العليم الخبير. ذلك أن تأمل (الحاجة) يدل على جمال (الغنى). ومن هنا كان من المستحيل أن تحمل الكائنات الحرفية حقيقة الاسم، إذ كل الحروف تقود إلى الاسم الواحد الأعظم. قال رحمه الله مجيباً عن أسئلة بعض طلاب النور: (أما سؤالك الثاني الذي يتعلق ببحث المعنى الاسمي والمعنى الحرفي، فمثلما أشارت كتب النحو عامة إليه في بداياتها، فقد وضحته توضيحاً كافياً بالأمثلة كتب علم الحقيقة كالكلمات والمكتوبات ويعد من الإسراف الإسهاب في الإيضاح لمن يملك ذكاءً ودقة ملاحظة مثلك.

فإنك إذا نظرت إلى المرأة من حيث إنها زجاجة، ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئاً ثانوياً، بينما إن كان القصد من النظر إلى المرأة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح أمامك حتى تدفعك إلى القول (فتبارك الله أحسن الخالقين) (المؤمنون: 14) بينما تبقى زجاجة المرأة أمراً ثانوياً.

النظرة الأولى تمثل (المعنى الاسمي) أي: زجاجة المرأة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها (معنى حرفي) غير مقصود. أما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن معنى (اسمي) أما الزجاج فمعنى (حرفي). وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم أنه: دلّ على معنى في نفسه. أما الحرف فهو: ما دلّ على معنى في غيره. فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات جميعها حروفاً، أي أنها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبّر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

أما نظرة الفلسفة الميتة فهي تنظر على الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة⁽⁶⁵⁾.

وبهذا النظر كان بديع الزمان يدرس الظواهر الكونية كلها ويتفكر فيها. قال: (فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل، وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي، ويعزلها عن المعنى الاسمي، من أن تكون خادمة ومسخرة

بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائم على نهج القرآن الكريم. فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شيء⁽⁶⁶⁾.

فقوله هذا: (فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شيء) دال على أن تحقيق الإنسان المؤمن للمعنى الحرفي في النفس؛ اعتقاداً وعبادة وتفكيراً؛ هو الكفيل بأن يبلغ به إلى تحقيق العبودية الكاملة لله الواحد الأحد سبحانه، وهو الكفيل بتحقيق انتسابه إلى الوجود الحق، وأما قصد (الاسمية) في النفس فهو قصد إلى العدم عينه.

وإنما كل ذلك (أخلاق) و(تخلق). إذ منطلق تحقيق الحرفية قائم أساساً على نكران الذات، والتجرد من الشهوات، ومجاهدة (للأنا) التي هي سبب كل بلاء. وما أطف قول النورسي في هذا: (إذا تأملت في "أنا" بالمعنى الحرفي، صار لك عيناً تفهمت ورأيت به كل ما في الكون؛ لأنه إذا جاءت المعلومات الأفاقية صادفت في "أنا" ما يصدقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفة "أنا" وربوبيته الموهومة، ومالكيتها المفروضة. فليرجع "أنا" من السّمكتية إلى الحبايية! وأما إذا نظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكا، وخنثت في الأمانة دخلت تحت (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْهَا) (الشمس:10)، إذ الأمانة التي تدهشت من حملها السماوات والأرض والجبال هي "أنا" من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك والشور والضلالات، إذ إذا تَسَتَّرَ "أنا" عنك غلظ، حتى صار حبلاً بلع وجودك، فصار كلك "أنا". ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد به؛ فيصير شيطاناً يبارز أمر صانعه. ثم يقيس الناس، ثم الأسباب؛ على نفسه؛ فيقع في شرك عظيم. ففي هذا الوجه لو أرسلت عينك وفتحت كل الآفاق انغلقت في وجهك، برجوع عينك إلى نفسك؛ إذ ترى كل شيء بلون ما في نفسك من "أنا". ولو أنه في ذاته - في هذا الوجه - الشرك والتعطيل، ولو ملئت الآفاق آيات باهرة، وبقي في "أنا" نقطة مظلمة؛ طمّت على الآيات!⁽⁶⁷⁾

إن هذا النص هو من ألطف كلمات الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله! فقد ضمنه غرة معاني العبودية، وجوهر أصول التوحيد! وذلك - كما رأيت - بأسلوب إشاري رفيع! (الأخلاق) إذن بكل امتداداتها الكونية؛ إنما منطلقها: (أنا)! هذه هي القضية. (فليرجع "أنا" من السّمكتية إلى الحبايية!) ذلك هو بيت القصيد، وإن دونه لفل الحديد وقطع الوريد!

ولي كبدٌ مقروحة من يبيعي بها كبدا ليست بذات قروح؟
أباها علي الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح؟

والمقصود بـ(السمكتية): المعنى الاسمي، والمقصود بـ(الحبابية): المعنى الحرفي. ذلك أن السمكة السابحة في الماء (ذات)، بينما الحباب إنما هو نفاحات الماء وفقايعه، التي ليس وراءها غير الهواء! فوجوده تبعي، لا ذاتي. وتحول السمكة إلى حباب يعني إنكارها لذاتها، وانتسابها في الوجود إلى الماء. فلا ترى الأشياء إلا من خلاله؛ تجريدا وتفريدا. وذلك عين التوحيد. بينما إصرارها على اسميتها يعميها عن إحصار الانتساب إلى بحرها، فلا ترى الأشياء إلا من خلال ذاتها! وذلك هو عين الشرك العظيم!

وإذن؛ (فليرجع "أنا" من السمكتية إلى الحبابية!) ذلك ألطف مثال — ولا مشاحة في الأمثال — ساقه بديع الزمان لبيان الحقيقة الوجودية، والبعد الكوني للأخلاق.

فـ(أنا) هي موضوع التخلق، وباب التربية، وسبيل المجاهدة؛ للوصول إلى الكونية الخلقية. وإنما انزلت قدم تلميذ الفلسفة في منطلق التفكير ومبدئه الأول هذا: (الأنا)، التي هي منطلق كل خير، ومنطلق كل شر، على حسب ما ركّبت عليه من (الاسمية) أو (الحرفية). قال رحمه الله: (إنَّ "أنا" له وجهان: وجه أخذته النبوة، ووجه أخذته الفلسفة. فالوجه الأول: منشأ العبودية المحضة. ماهيته حرفية، ووجوده تبعي، ومالكيته وهمية، وحقيقته فرضية، ووظيفته: صيرورته ميزانا ومقياسا لفهم صفات الخالق. فالأنبياء هكذا نظروا إلى "أنا"، فسلموا الملك كله لله. وحكموا بأنه لا شريك له، لا في ملكه ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته. ويده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير. ومن هذا الوجه الشفاف الحي أنبت الرحيم جل جلاله شجرة طوبى العبودية، فأثمرت أغصانها المباركة في حديقة الكائنات، دانية قطوفها، متدلّية ثمرات الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصديقين، المتألّئين كالنجوم في الظلمات!

وأما الفلسفة فنظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمي دون الحرفي، وبالوجود الأصلي دون التبعي، وزعموه مالكا بالحقيقة، وظنوه حقيقة ثابتة، وتوهموا وظيفته: تكمل ذاته بحب ذاته! فمن هنا تشعبت أنواع الشرك، وعلى رأس "أنا" نبتت شجرة زقوم الضلالة (...)
فـ"أنا" في العالم الصغير، كالطبيعة في العالم الكبير: كلاهما من الطواغيت! (68).

فإذن؛ آل أمر الأمانة الكونية الكبرى إلى قضية واحدة؛ موقفا وسلوكا. هي: (أنا). كيف يمكن تربيتها حتى تتخلق بأخلاق القرآن؟ كيف يمكن إخراجها من الجزئية البشرية

الضيقة، إلى الاستخلافية الكلية، والأمانة الكونية الفسيحة؟ إن حديث عائشة رضي الله عنها في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه (كان خلقه القرآن)⁽⁶⁹⁾؛ حديث محيل على الكون العابد لله الخاضع لسلطانه. أليس القراءان هو ترجمان الكون؟ أليس هو الثبت الكشاف عن أسراره؟ ثم أليس الكون هو كتاب الله المنظور؟ أليس هو برهانه المنشور؟ كما بينه بديع الزمان في غير ما موطن من رسائله⁽⁷⁰⁾. إذن؛ التخلق بأخلاق القرآن هو تخلق بأخلاق الكون، السائر إلى الله عبر أفلاك العبادة؛ رغبا ورهبا، كما في قوله تعالى: (تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء: 44). وقال مخبرا عن ذوات الشعور من الأحياء: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيَّ رَبُّهُمْ يُخْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الأنعام: 38-39).

إن إخراج (أنا) من طينيتها الخزفية الفانية؛ هو إخراج لها من (اسميتها) الوهمية؛ إلى حرفيتها المستندة إلى الحق الباقي سبحانه وتعالى. وهي لذلك في حاجة إلى تهذيب وتشذيب. حتى ترتقي إلى أعلى مراتب الكونية. وتتبوأ أرقى مدارج العبودية، كلما برهنت على حرفيتها؛ بالتجرد من ذاتها والفناء عنها؛ حتى لا تبقى إلا بالله. الاسم الحق وحده دون سواه في الكون كله. ذلك هو العلم الذي أوتيته الإنسان ليبرهن به على وحدانية الله سلوكا وعبادة. وذلك هو الخلق العلي الرفيع، بل هو مفتاح الأخلاق كلها وسر أسرارها. وتأمل كيف أن الله جل جلاله يغضب غضبا شديدا على كل متكبر؛ ذلك أن التكبر هو سر غلو (الأنا) وإصرارها على اسميتها الوهمية. ولا انتقال لها إلى حرفيتها الفطرية؛ إلا بالتجرد الكامل من كل أنواع الكبرياء، والدخول في خلق التواضع والخضوع. وليس عبثا أن أنذر الرحمن عباده بما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي قال: (قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار!)⁽⁷¹⁾

خاتمة في أن الأخلاق مفتاح الإصلاح:

وبعد،

فإننا بهذا البحث المتواضع نستطيع الوصول — إن شاء الله — إلى نتيجة، فيما يتعلق بباب الخروج من الأزمة الراهنة، التي تكبل هوض الأمة الإسلامية اليوم. وذلك أن الدارس لكليات رسائل النور، يمكن أن يثبت بسهولة؛ أن للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رأيا في الخلاف المشهور بين علماء الدعوة والإصلاح، في الفكر الإسلامي المعاصر، والذي مداره حول سؤالين إشكاليين، هما:

— طبيعة الأزمة ما هي؟

— ثم كيف الخروج منها؟

ومعلوم أن الأجوبة تضاربت في ذلك وتباينت، فمن داعية يرى أن الأزمة أزمة فكرية، إلى من يرى أنها أزمة روحية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو عسكرية... إلى غير ذلك من الاجتهادات والتصورات. ثم يختلفون بعد الاختلاف الأول في باب الخروج منها: أهو العمل السياسي الحزبي؟ أم هو العمل الثقافي العلمي؟ أم هو العمل الروحي الصوفي؟... إلخ. وربما اتفقت أقوال بعضهم على توصيف معين للأزمة، لكنهم يختلفون في تحديد باب الخروج كيف؟

إن بديع الزمان يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأزمة اليوم أزمة أمانة! لكن ليس بالمعنى الفقهي للكلمة. بل هو بمعناها الكوني، الراجع إلى الوظيفة الوجودية للإنسان في القرآن، والتي هي عنوان الاستخلاف الرباني، في قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب: 72). ثم إن هذا المفهوم الشمولي الذي أعطاه الأستاذ النورسي للأخلاق؛ جعله يعتبرها هي باب الخروج من الأزمة؛ صلاحا وإصلاحا. إذ بصلاحها ينهض الناس بالأمانة، وبفسادها يتمردون عليها ويخونونها. فهي غاية ووسيلة في الآن نفسه، وهي مادة التربية، وهي مقصدها.

ولقد ألغى الأستاذ النورسي العمل السياسي — بمعناه الضيق — من الاعتبار في العملية الإصلاحية، وجعله من الهوامش والتوابع، لا من المنطلقات والأصول، في المشروع التجديدي للدين، منطلقا في ذلك من الطبيعة التشريعية للإسلام من جهة، ومن فقه الواقع السياسي المعاصر، واعتبار المآلات الاجتماعية من جهة أخرى. قال رحمه الله:

(إن نسبة الأخلاق والعبادة، وأمور الآخرة، والفضيلة؛ في الشريعة؛ هي تسع وتسعون بالمائة. بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحدة بالمائة!)⁽⁷²⁾

وفي هذا نقد واضح وصريح للتصورات السياسية الجزئية، التي حجرت العمل الإسلامي في زاوية وسَلِيَّة، لا تفضي إلى غاية كونية.

إن الأخلاق في كليات رسائل النور هي جوهر العمل الديني. فمن خلالها خاطب الأستاذ النورسي أجيال ما بعد جيله وزمانه، وضمن للتدين امتدادا في المستقبل، بل ضمن له انتصارا على كل منظومات العولمة في كل أشكالها وكل مقولاتها.

وما أسعدنا أن نختتم بحثنا هذا بكلمة صدرت عنه رحمه الله، أطلقها نداء كونيا في أثر الوجود، فلم تزل تطن في أذن العالم إلى الأبد، قال: (يا أبناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق، الفاسد؛ في إناء آخر! ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها، والتخليق بالأخلاق الفاضلة!)⁽⁷³⁾

تلك بصيرته التي أبصرت مستقبلات الحياة ببصائر القرآن؛ فكانت رسائل النور تبصيرا لمن لم ير؛ عسى ألا يكون من العمين. يقول الحق جل وعلا: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) (الأنعام: 104).

* * *

الهوامش والإحالات:

(1) المثنوي العربي النوري: 218.

(2) الملاحق: 100.

(3) لأبد من التنويه بأن بدیع الزمان لا يهاجم الفلسفة بإطلاق، وإنما يهاجم قسمها الضار للاجتماع البشري. قال رحمه الله: (إن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتضعفها بضعفاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرفي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تنتصدي رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة). الملاحق: 286.

(4) مفردات الراغب الأصفهاني: مادة: (خلق).

(5) مختار الصحاح: (خلق).

(6) رواه أحمد عن أبي الدرداء، مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 5390

(7) لسان العرب: (خلق)

- (8) القاموس المحيط: مادة: (خلق).
- (9) أفلاطون، سيرته وفلسفته: 142 إعداد أحمد شمس الدين.
- (10) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور أبي ريان: 268-269
- (11) ن. توماس الإكويني، تأليف الشيخ كامل محمد عويضة.
- (12) ن. عمانويل كانط، تأليف الشيخ كامل محمد عويضة.
- (13) حكمة الغرب: 207/2 وما بعدها. ليرتراند رسل.
- (14) حكمة الغرب: 213/2.
- (15) رواه مسلم
- (16) رواه ابن سعد والحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2349
- (17) إشارات الإعجاز: 285.
- (18) إشارات الإعجاز: 266
- (19) المكتوبات: 607
- (20) إشارات الإعجاز: 272
- (21) رواه مسلم.
- (22) الكلمات: 741. ن. نحوه أيضا في المكتوبات: 393.
- (23) اللغات: 95
- (24) المكتوبات: 393.
- (25) ن. مصطلح القرآن، في مشروع (معجم رسائل النور)
- (26) إشارات الإعجاز: 22/5، والمكتوبات: 267/2.
- (27) المكتوبات: 236
- (28) رواه الطبراني في الكبير: 430/12 وقال ابن حجر: رجاله ثقات، فتح الباري: 183/5، لكن الهيئتي ضعفه في مجمع الزوائد: 106/8. والمحفوظ هو قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق آدم على صورته) متفق عليه.
- (29) الملاحق: 284.
- (30) ن. مصطلح الكون، في مشروع (معجم رسائل النور)
- (31) الكلمات: 642
- (32) الكلمات: 643
- (33) من مقدمة د. محسن عبد الحميد لإشارات الإعجاز: 8
- (34) الملاحق: 234
- (35) صيقل الإسلام: 518.
- (36) الكلمات: 643-644.
- (37) الكلمات: 476
- (38) الكلمات: 476.

- (39) الكلمات: 765
- (40) الشعاعات: 247
- (41) الكلمات: 159.
- (42) اللمعات: 446
- (43) صيقل الإسلام: 123.
- (44) رواه الدارقطني بإسناد حسن، كما جاء في صحيح الجامع الصغير: 2328
- (45) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية: 532
- (46) إشارات الإعجاز: 207.
- (47) صيقل الإسلام: 446.
- (48) الكلمات: 19
- (49) الكلمات: 258
- (50) صيقل الإسلام: 148
- (51) الكلمات: 144.
- (52) ن. مصطلح الانتساب، في مشروع (معجم رسائل النور)
- (53) الكلمات: 106
- (54) الشعاعات: 284
- (55) صيقل الإسلام: 470
- (56) رواه الطبري في تفسيره: 31/4، نشر دار الفكر بيروت لبنان: 1405هـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 4473.
- (57) ن. مصطلح الإنسان، في مشروع (معجم رسائل النور)
- (58) الكلمات: 63 – 64
- (59) الكلمات: 204
- (60) سبق تخريجه.
- (61) المكتوبات: 604
- (62) ن. مصطلح الإنسان، في مشروع (معجم رسائل النور)
- (63) ن. مصطلح الانتساب، في مشروع (معجم رسائل النور)
- (64) ن. أافية ابن مالك: "وكافتقار أصلاً".
- (65) اللمعات: 171 – 172
- (66) الكلمات: 561.
- (67) المثنوي العربي النوري: 328.
- (68) المثنوي العربي: 329
- (69) رواه مسلم
- (70) ن. مصطلح القرآن، في مشروع (معجم رسائل النور)

(71) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص): 4311

(72) صيفل الإسلام: 446

(73) صيفل الإسلام: 467

* * *

المصادر والمراجع:

— صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماصي الرفاعي. دار القلم بيروت. ط. الأولى: 1407هـ/1987م.

— صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث بالقاهرة. ط. الأولى: 1412هـ/1991م.

— صحيح الجامع الصغير وزياداته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي بيروت/ دمشق. ط. الثالثة: 1408هـ/1988.

— كليات رسائل النور تأليف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط 2 بمصر 1412 هـ/ الموافق 1992 م. وتتضمن:

— الجزء الأول : الكلمات

— " الثاني : المكتوبات

— " الثالث : اللغات .

— " الرابع : الشعاعات

— " الخامس : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.

— " السادس : المثنوي العربي النوري .

— " السابع : الملاحق .

— " الثامن : صيفل الإسلام .

— " التاسع : سيرة ذاتية .

— فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. نشر دار المعرفة بيروت: 1379هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

— القاموس المحيط للإمام مجد الدين الفيروزأبادي.

— لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور — دار صادر بيروت بلا تاريخ.

- مختار الصحاح لأبي بكر الرازي طبعة المكتبة الأموية بيروت: 1391هـ
- المفردات في غريب القرآن. تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. طبع شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: 1381هـ/1961م.
- أفلاطون سيرته وفلسفته إعداد أحمد شمس الدين. نشر دار الكتب العلمية بيروت. ط. الأولى: 1411هـ/1990م.
- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور محمد علي أبي ريان. دار النهضة العربية بيروت. ط. الثانية: 1973م.
- توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى. تأليف الشيخ كامل محمد عويضة. نشر دار الكتب العلمية بيروت. ط. الأولى: 1413هـ/1993م.
- حكمة الغرب تأليف برتراند رسل. ترجمة الدكتور فؤاد زكريا. سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت. العدد: 72 صفر/ربيع الأول: 1404هـ. 1983م.
- عمانويل كانط شيخ الفلسفة في العصر الحديث تأليف الشيخ كامل محمد عويضة. نشر دار الكتب العلمية بيروت. ط. الأولى: 1413هـ/1993م.